

الحقائب

قصة بقلم مصطفى زيات

« آه يا جرحي المكاس
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
أنتي العاشق ، والأرض حبيبة » .

محمود درويش

اعداد حقائبه حينما سافر الى دمشق ؟
ولكن ترتيبه - قطعاً - لن يروق لوالدته ، وستفرغ الحقائب
وتعيد ترتيبها - كما فعلت بحقائبه يوماً - .
ان لها طريقة خاصة في ترتيب الحقائب . فلقد رتبت حقائب
أخيه حين سافر الى الكويت ليعمل ، ثم رتبت حقائب زوجة أخيه
حينما لحقت بزوجها . وكذلك رتبت حقائب أخته الكبرى حينما
غادرت القرية - هي وزوجها المدرس - الى الجزائر . وقد رتبت له
حقائبه حينما سافر الى السعودية .
وتمنى أن ترتب لابنة خالته حقيبتها حينما تسافر معه في مطلع
العام الدراسي المقبل .

أعاد الساعة الى جيب الحقيبة الصغير ، والشال الى كيسه
الورقي ، ووضع فوق محتويات الحقيبة الى جانب الشال الآخر .
وخطر بباله أن يخرج قطعة القماش التي اشتراها لأمه ، وكذلك
قطعة القماش لابيه ، ولكنه لم يفعل ، ثم أغلق الحقيبة .
وحينما تمدد فوق سريره ليستريح شعر بالحر ، لكنه لم يتأفف ،
على الرغم من انه كان شديداً ، وكان يضجره حتى في منتصف
الشتاء . واكتفى بأن مد يده وضغط زوا صغيراً مثبتاً في الجدار
بجانب السرير فدارت المروحة المعلقة في سقف الغرفة . أيام قليلة
ويكون بين أهله ، فيرى أباه وأمه ، وأخاه وأخته ... ويرى ابنة
خالته . سيكون سعيداً ، وسيكونون سعداء . وسيحاول أبوه إخفاء
سعادته ، وسيعاتبه لاسرافه ، ولكن عتابه سيكون رقيقاً ، سيكون
أقرب الى النصائح - أنه يعرف أباه جيداً - ، وسيستمع اليهما ،
وسيعد أباه باتباعها ، كما سيعده بارسال بطاقتين لاداء فريضة
الحج ، في العام المقبل .

وتتابعت الصور والأخيلة ، وعادت كلمات قصيدة الصديق تحرك
شفتيه لتخرج بهدوء ، بينما تملقت عيناه بالحقيبتين الجائمتين فوق
بعضهما فوق الطاولة .

« - فمتى أرحل كالنهر إليها ؟

- دان ... دان

عمان ١ تموز ١٩٦٧

وضع الحقيبتين على الأرض ، وحرك أصابع يديه عدة مرات ،
ثم أخرج من جيبه منديلاً أبيض وراح يمسح به العرق الفزير الذي
كان ينبع من جبهته ويسير خطوطاً على وجهه ووراء أذنيه وحسول
عنقه ، حتى بلل قميصه فالتصق بجسمه وظهرت واضحة تقاطيع
جسمه النحيل ، ثم رفع رأسه الى السماء واستنشق أكبر كمية ممكنة
من الهواء . أعاد المندبل الى جيبه وأخرج في الوقت نفسه البرقية
التي وصلته رداً على برقيته التي أرسلها الى أخيه في الكويت وقراً :
« كلنا بخير ... » .

طوى البرقية وأعادها الى جيبه ، وأخرج من جيبه الآخر البرقية
الثانية التي وردته من أخته في الجزائر وقراً : « كلنا بخير ... » .
طواها وأعادها الى جيبه ، وحرك أصابع يديه عدة مرات ، ثم
حمل حقيبته ومشى ، بتناقل ، مطاطاً الرأس ، تحت أشعة
الشمس .

الحقائب في كل مكان ، على أرصفة الشوارع ، وفي مداخل

جيزان ؟ حزيران ١٩٦٧
أكثر من مرة أفرغ الحقيبة من كل محتوياتها ، وعاد يرتبها من
جديد وأكثر من مرة فتح الحقيبة الثانية وأخذ منها شيئاً ، ووضع
آخر ، وأغلقها .

منذ أيام ثلاثة وهو لا عمل له إلا الذهاب الى السوق ، والشراء ،
وترتيب الحقائب . فلقد انتهى العام الدراسي وسيعود الى أهله ،
الى امه وأبيه ، الى أخته وأخيه ... والى ابنة خالته .

الحقائب التي لم تتحرك طيلة أشهر ثمانية هي الآن في حركة
دائمة ، تنتقل من فوق الخزانة الى السرير ، الى الطاولة ، وفي
كل موضع من هذه المواضع ، كان يفتح إحدى الحقائب ويفلقها مرات
عديدة ، حيث كان يخرج - في أكثرها - احد الشالين الأبيضين
الذين وضعهما فوق الأشياء جميعاً ، ويتأمله ، ويدهل عن نفسه ،
فتعود كلمات قصيدة صديقه لتتحرك شفتيه وتخرج من خلال ابتسامته
التي لم تفارقه منذ أيام ثلاثة .

« - فمتى أرحل كالنهر إليها ؟

- دان ... دان

وأراها مثلما كانت صبية ؟

- دان ... دان

- أكل الخبز ... وأصفر اذا قالت وداعاً ؟

- دان ... دان

- تتداني - ان بكت يوماً على النهر بصمت صفتان ؟

- دان ... دان

- اشتري مهراً ... وحلة ؟

- دان ... دان

- وعطوراً للصبية ؟

- دان ... دان

- نزرع الأرض سوياً ؟

- دان ... دان

- آه ... هيا . » .

وكعادته - في كل مرة يصل فيها الى كلمة « هيا » - تذكر
نفسه ، وكبرت ابتسامته ، وخاطب نفسه :

- لله درك يا أخي ، لله درك .

ثم وضع الشال الأبيض برفق فوق السرير ، وأخرج من جيب
الحقيبة الصغير ساعة اليد الصغيرة التي سيفاجئ بها أخاه الذي
سينال التوجيهية هذا العام ، وسيرساله الى القاهرة ليتابع دراسته
في جامعتها مع ابن عمه ، وسيؤمن له كل المصاريف .

- ألم يؤمن له أخوه الأكبر مصاريف دراسته في جامعة دمشق ؟
وسيساعده في اعداد حقائبه .

- ألم يساعده أخوه الأكبر - على الرغم من معارضة أمه - في

الابنية ، في المساجد ، في الكنائس ، في المستشفيات ، فوق الرؤوس ، وعلى الظهور ، وفي الايدي .
وتتابع تصادم حقييته مع الحقائق الاخرى ، التي تحملها ايدي متعبة اخرى ، لاجسام نحيلة اخرى .
واقتراب من ساحة المدينة ، فتزايدت الحقائق ، وتزايدت تصادمها ، وتزايد النصب والانهك والعرق ، وهو ما زال يمشي ، مطاطء الرأس ، تحت اشعة الشمس . ثم ضاع بين مئات حاملي الحقائق ، الذين نقلوا اليه - قبل الامس - اخبار اهله ، فقالوا له :
- هدم القصف بيت ابيك ...
- ماتت اخنك تحت الانقاض ...
- رفض ابوك أن يفادر القرية .. وهو يعيش في القرية الوحيدة التي نجت من القصف ...
- انضم اخوك الى صفوف المقاومة ...
كان مركز الانطلاق مزدحما بالحقائب وبحامليها . وضجع حقيتيه على الارض ، وحرك اصابع يديه عدة مرات ، ثم أخرج مندبله ومسح به العرق الذي كان يملا وجهه وعنقه وصدره وساعديه .
أعاد المندبل - بعد أن طواه - الى جيبه وجلس فوق الحقيبتين ، مطاطء الرأس ، ينتظر .

دمشق ٣ آب ١٩٦٧ .
قبل أيام كان لقاءه مع صديقه وزميله أيام الدراسة في الجامعة لقاء غريبا ، مفاجئا ، غير الصديق فيه عن فرحة اللقاء بابتسامته صغيرة سريعة ، ثم أشعل سيجارة وسأل صديقه عن احواله ، فاجابه :
- كنت بخير في السعودية ، واخي بخير في الكويت ، واخنتي بخير في الجزائر ، والثانية ماتت تحت الانقاض ، ورفض ابي مفادرة القرية ، وهو يعيش مع امي في القرية الوحيدة التي بقيت سليمة ، وانضم اخي الى صفوف المقاومة .
لقد استنظمت أن أرسل لهم بعض المال ، ولكنني لم أتمكن من رؤيتهم . فكرت في العودة الى السعودية ، او الذهاب الى الكويت ، او الجزائر ، لقضاء العطلة الصيفية ، ولم استطع أن أعيش وحيدا في عمان ، وها أنا الآن في دمشق .
وأشعل الصديق سيجارة اخرى .
كان الصمت يسيطر على معظم لقاءاتهما في الايام القليلة الماضية ، فقد كان يشغل نفسه بمراقبة الحقائق المنتشرة في كل مكان ، على الارصفة ، في مداخل الابنية ، في الجوامع ، في الكنائس ،

وفي الخيم . فوق الرؤوس ، وعلى الظهور ، وفي الايدي النحيلة للاجسام النحيلة .
بينما كان صديقه يشغل نفسه - كمادته حينما يفقد القدرة على التركيز - باحراق السجائر .
وعندما يتعبان من التجوال في شوارع المدينة وضواحيها كانا يعودان للنوم .
وكان لقاء الامس احرص . فلقد وصله نبأ مقتل اخيه على مقربة من قريتهم .
- صباح الخير .
- صباح الخير .
ثم تناول من صديقه احدى الحقيبتين ووضعها على السرير الى جانب الحقيبة الاولى التي بدأ الصديق فتحها .
- أراك نهضت باكرا هذا الصباح .
اجاب وهو يخرج بعض الاشياء الضرورية من حقيبتيه ويضعها فوق الطاولة : - ساسافر .
فتساءل الصديق وهو يخرج علبة السجائر من جيبه :
- ولكن موعد افتتاح المدارس بعيد .
- لن أعود للسعودية .
فساله بعد أن أشعل سيجارته : - ان تعمل ؟

- ساعمل .
- أين ؟
اجاب وهو يفتح الحقيبة الثانية التي ظلت مغلقة اكثر من شهر : - في قريتي .
ثم أخرج من الحقيبة احد الشالين الابيضين ولف به الاشياء القليلة التي أخرجها من الحقيبة الاولى .
وقف الصديق صامتا بعد أن أطفأ سيجارته التي لم يأخذ منها الا نفسا واحدا .
أغلق الحقيبتين وحملهما وادخلهما تحت السرير وقال مخاطبا صديقه :
- ساترك الحقيبتين عندك .
ظل الصديق صامتا .
صافح صديقه وعانقه ، ثم صافحه مرة ثانية ولكن بقوة أكبر ، وبكلتا يديه ، ثم حمل صرته البيضاء ، وانطلق ، على الطريق الطويل الذي يلمع تحت اشعة شمس جديدة .
مصطفى زيات

تسريح جنة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

صدر حديثا :

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوربية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوربا ، وصلة ذلك بالفزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاختفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية . ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي فسي آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .
منشورات دار الاداب